

# رسائل عمر بن الخطاب في تدبير الجيش

د. إحسان هندي

**هـ** المعلوم أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان من أعدل الخلفاء وأجراًهم في نصرة الحق وإغاثة المظلوم ، ولكن الشيء غير المعلوم عنه ، أو الذي لا يعلمه إلا نادرة من الباحثين ، هو موهبته العسكرية ، بل الاستراتيجية إذا صح التعبير ، لأنه كان يسيّر جيوشه لتحقيق أهداف معينة ضمن خطة استراتيجية محددة .

وإذا كانت الدولة العربية في زمنه تضاعفت مساحتها عما كانت في زمن سلفه أبي بكر ، وإذا كانت الممارك التي خاضها العرب في عهده أغلبها - إذا لم نقل جميعها - معارك ظافرة ، فإن السبب في ذلك لا يرجع إلى عبقرية قادة جيوشه فقط ، وإنما إلى خطته الرائعة ووصاياه الحكيمة والشاملة أيضاً التي تنم عن ذهنية موسوعية ووقادة .

فالي جانب وصيته في ( القضاء ) التي ما زالت مبادئها صالحة للتطبيق حتى اليوم في مجال أصول المحاكمات والاثبات والبيّنات ، هناك وصايا مشهورة له في مجال تدبير الجيش ، ويأتي على رأس هذه الوصايا ثلاث :

١ - وصيته إلى سعد بن أبي وقاص عندما وجهه لفتح العراقيين في أصول التعبئة والمسير باتجاه العدو .

٢ - وصيته إلى أبي عبيدة بن الجراح في قوانين الحرب الواجب التقيد بها في مجال التعامل مع العدو .

### ٣ - وصيته الى قادة الفتوح عند تسليمهم الأعلام بخصوص أخلاقيات الجند •

وما نحن نثبت نصوص هذه الوصايا الثلاث مع شرح ما غمض منها •

★ ★ ★

### أولاً - وصية عمر الى سعد بن أبي وقاص في التعبئة :

يقول عمر بن الخطاب في رسالته الى سعد بن أبي وقاص لما وجهه الى فتح العراقيين سنة ١٣ هـ :

« وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يُتعبهم ، ولا تُقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم يُنقص من قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع<sup>(١)</sup> ، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم ويرثون<sup>(\*)</sup> أسلحتهم وأمتعتهم<sup>(٢)</sup> . ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثق بدينه ، ولا يرز<sup>(\*\*)</sup> أحداً من أهلها شيئاً فان لهم حرمة وذمة ابتليت بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولواهم خيراً<sup>(٣)</sup> ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح<sup>(٤)</sup> .

وإذا وطئت أرض العدو فأذك<sup>(\*\*\*)</sup> العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم<sup>(٥)</sup> . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والفاش عين عليك وليس عيناً لك<sup>(٦)</sup> . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم<sup>(٧)</sup> وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل فان لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك<sup>(٨)</sup> واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاء ، لا تخص بها أحداً بهوى فيضيّع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك<sup>(٩)</sup> . ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو وضعية أو نكاية<sup>(١٠)</sup> . فاذا عاينت العدو

(\*) رمه : اصلحه • (\*\*) رزاه ماله : اصاب منه شيئاً • (\*\*\*) أذكى عليه العيون : ارسل عليه الطلائع •

فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع اليك مكيدتك وقوتك<sup>(١١)</sup> ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك وتقاتله<sup>(١٢)</sup> وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك<sup>(١٣)</sup> ، ثم أذك أحراسك على عسكريك وتيقظ من البيات جهدك<sup>(١٤)</sup> ، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان<sup>(١٥)</sup> .

#### □ حواشي الوصية الأولى :

١ - يطلب عمر من سعد في بداية الوصية أن يترافق بالمسلمين في السير ، وذلك خيفة على جند المسلمين وعلى روحهم المعنوية حيث إن المسافة بين الحجاز والعراق طويلة ( نحو ١٥٠٠ كم ) والغاية من هذا هي وصول المسلمين الى عدوهم وهم على أحسن حال من النشاط وموفور القوة ، لأن السفر الطويل دون راحة يجعلهم أقل قدرة على القتال من العدو المقيم في أرضه والذي غالباً ما يكون قوياً بجنده وعتاده « حامي النفس والكراع » .

٢ - ثم يوصي عمر سعداً بأن يعسكر بجنده مدة يوم وليلة والمقصود هنا نهار وليلة أي ٢٤ ساعة ) في كل أسبوع ، وذلك لكي يعتني الجند بنظامهم وصيانة أسلحتهم ، وهذا نظر صائب فيما نعتقد ، ولا سيما إذا أخذنا في الحسبان المشقة التي كان يسببها السفر في تلك الأيام وتلك الظروف . وبالطبع ليس هناك ما يمنع من اختصار مدة الراحة هذه إذا دعت لذلك أسباب مهمة ، كما حصل لخالد بن الوليد عندما انطلق بجنده من العراق الى الشام ، فقطع المسافة بمدة أسبوع دون أي توقف .

٣ - ويوصي عمر قائده بأن يبعد أماكن عسكرية جنده عن قرى أهل الصلح ( وهم من ارتبطوا بعهد صلح مع المسلمين يسمح بنشر الدعوة الاسلامية في بلادهم مقابل حماية المسلمين لهم وعدم المساس بحريتهم في عقيدتهم وتأديتهم مراسم عباداتهم ) . والغاية من ذلك تجنب اعتداء أحد أفراد جند المسلمين على واحد من أهالي دار الصلح في شخصه أو ماله أو عرضه . وإذا اضطر قائد الجيش الاسلامي لارسال بعض جنده الى بلدة من بلاد أهل الصلح فيجب أن يختار لذلك من يثق الثقة التامة في دينه ، لأن عقد الصلح ينشئ حقوقاً وواجبات

متبادلة ، وفي هذا يقول عمر : « فان لهم حرمة وذمة ابتليتكم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً » .

وهذه العبارة في وصية عمر مشتقة من الآية الكريمة : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين » ( سورة التوبة - الآية رقم ٥ ) .

٤ - وأما عبارة « ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح » فتحتوي مبدأ يشكل واحداً من أهم مبادئ القانون الدولي في هذا العصر ، إذ إنه لا يجوز لقائد الجيش الاسلامي أن يضحي بأرواح سكان دار الصلح أو بأموالهم أو حتى بحقوقهم المعنوية في سبيل التمكن من الانتصار على سكان دار الحرب ( دار الحرب هي الأقطار المتاخمة لدار الاسلام التي لم يرض أهلها الدخول في الاسلام ولا عقد صلح مع المسلمين ، فاذا عقدوا مثل هذا الصلح أصبحوا دار صلح ، وإذا لم يرضوا ذلك بقوا دار حرب ، وإذا فتحت دار الاسلام أراضيهم عنوة يصبحون جزءاً من دار الاسلام ) .

وهذا المطلب الأخلاقي يستند بلا ريب الى الأحكام الأساسية في الاسلام ولا سيما الى الآية الكريمة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » ( سورة الاسراء - الآية رقم ٣٤ ) .

٥ - ثم يوصي عمر قائد جيشه بأن يعمل بمجرد دخوله أرض العدو الى بث عناصر الاستخبارات ( إذكاء العيون ) وذلك لئلا يخفى عليه من أمر عدوه شيء . وينصح عمر في هذا المجال بالاستعانة بمدير استخبارات المسلمين أو حتى من أبناء المنطقة المفتوحة « أهل الأرض » بشرط أن يكون من الموثوقين .

٦ - ولكي يكون عنصر الاستخبارات موثقاً ينبغي أن يكون صادقاً ، فهو إذا كان كاذباً أو غاشاً فان ضرره لا بدأكثر من نفعه لأنه قد يكون عندئذ عيناً للعدو أكثر من أن يكون عيناً للصديق ، أو كما يقول عمر نفسه : « الغاش عين عليك وليس عيناً لك » ، وبهذا يكون عمر قد فطن منذ ذلك الوقت الى احتمال وجود عملاء الاستخبارات المزدوجين DOUBLE - AGENTS ممن يعملون لنا وللعدو في الوقت نفسه .

٧ - ثم يوصي عمر سعداً بالاكثار من الحذر عند الدنو من جيش العدو ، وذلك بالاكثار من الطلائع والسرايا وهي الوحدات المتقدمة من الجيش . ومهمة (الطلائع) تختلف جزئياً عن مهمة (السرايا) وذلك أن المهمة الرئيسية للطلائع هي الاستطلاع لمعرفة الثغرات الموجودة في جيش العدو « وتتبع الطلائع عوراتهم » .

وأما السرايا فمهمتها الرئيسية هي الاشتباك مع العدو ، ولا سيما القضاء على « إمداداته ومرافقه » قبل وصولها إليه .

٨ - وبما أن لوحدات الطلائع مهمات خاصة لذا يجب انتقاء « أهل الرأي والبأس » لها ، وهذا يعني اختيار جندهما من الأقوياء الشجعان ذوي التدبير والحيلة ، حتى إذا اصطدم بهم العدو كانت هذه العناصر الجيدة ، المتمرسنة هي أول ما يصطدم به من القوات الصديقة ، وهذا نظر صائب وسليم ، وحكمة لا تزال حتى اليوم واجبة التنفيذ .

٩ - ويجب انتقاء عناصر السرايا بالعناية نفسها ، حيث إن هؤلاء يلزم أن يكونوا من « أهل الجهاد والصبر على الجلال » ، كما يجب أن تُسند قيادتهم إلى أحد الشجعان الميامين . وعلى أمير الجيش أن يتحاشى محاباة أحد أقاربه أو رجال خاصته فيعيّنه لهذه المهمة إذا لم يكن أهلاً لها ، وذلك لأن الضرر الذي سيسببه هذا التعيين يفوق بكثير المنفعة التي يمكن أن تحققها المحاباة والمصلحة الخاصة اللتان دفعتهما لهذا التعيين .

١٠ - وإذا كان أفراد وحدات الطلائع والسرايا من المتمرسين في شؤون الجهاد والجلاد ، فهذا لا يعني أن بوسع الأمير أن يلقي بهم إلى التهلكة ، بل عليه أن يتجنب إرسال طليعة أو سرية في مهمة تتعرض فيها إلى الهزيمة أو الضياع كما يقول عمر في وصيته :

« ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية » .

١١ - وعند حدوث التماس مع العدو ينصح الخليفة عمر أمير جيشه بأن يعمل على تجميع قواته وتقليل جبهة انتشارها ، وذلك لئلا يستفرد العدو بسرية منعزلة في المقدمة أو المجنبنة فيقضى عليها بسهولة ، وكذلك للتمكن من حشد كامل القوى الصديقة وزجها في المكان المناسب من جهة أخرى .

١٢ - وينصح عمر سعداً ألا يبدأ هو مُناجزة العدو - أي مقاتلته - وبأن يترك للعدو مهمة البدء بالخطوة الأولى . والغاية من ذلك ليس ترك المبادأة للعدو - كما قد يتبادر الى الذهن - وانما لكي يبصر الأمير « عورة عدوه ومقاتله » - أي نقاط ضعفه - فيوجه قوته الضاربة باتجاهها .

ويبقى للأمير مع ذلك حق البدء بمناجزة العدو « اذا استكرهه قتال » ، أي اذا دعت لذلك ضرورة قتالية معينة ، كأن يستغل فرصة سانحة لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة ، وقديماً قيل « الهجوم خير وسائل الدفاع » .

١٣ - ومن الطبيعي أن الهجوم على العدو يجب ألا يتم الا حسب خطة حربية معينة ، وهذه الخطة يتم وضعها دوماً بمراعاة عدة عناصر أهمها عدد العدو وتسليحه ، وعدد الصديق وتسليحه ، والهدف من المعركة ، والوقت الذي تتم به ، وطبيعة الأرض . وقد ركز عمر في وصيته على هذا العامل الأخير فنصح سعداً بأن « يعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها » ، وذلك لكي تأتي خطته الحربية متلائمة مع المعطيات التي تكفل نجاحها .

١٤ - وأخيراً ينصح عمر قائده أن يأخذ حذره من المفاجآت الليلية : « ويتيقظ من البيات جهدي » ، ويكون ذلك بأخذ الحيطة والاكثار من العسس ( الحرس الليلي ) وبث الكمائن حول معسكر المسلمين .

١٥ - وينهي الخليفة عمر وصيته بالدعاء لسعد بن أبي وقاص بأن يكون الله وليه - أي نصيره - وولي جنده الذين معه ، وبأن يقودهم الى النصر على العدو وعند لقائهم به ، وقد تمّ هذا النصر بالفعل في معركة القادسية عام ١٤ للهجرة .

★ ★ ★

### ثانياً - وصية عمر في شريعة الحرب وقوانينها :

وفي هذا المجال نجد عمر بن الخطاب يوصي قائده أبا عبيدة بن الجراح لما وجهه الى فتح بلاد الشام بما يلي :

« بسم الله وعلى عون الله<sup>(١)</sup> ، وامضوا بتأييد الله بالنصر وبلزوم الحق والصبر<sup>(٢)</sup> ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله<sup>(٣)</sup> ولا تعتدوا ان الله لا يحب

المعتدين<sup>(٤)</sup> . لا تجبنوا عند اللقاء<sup>(٥)</sup> ، ولا تمثلوا عند القدرة<sup>(٦)</sup> ، ولا تسرفوا عند الظهور<sup>(٧)</sup> ، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدًا<sup>(٨)</sup> ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند حُمّة النهضات<sup>(٩)</sup> ، وفي شن الغارات<sup>(١٠)</sup> ، ولا تغفلوا عند الغنائم<sup>(١١)</sup> ، ونزّ هوا الجهاد عن غرض الدنيا<sup>(١٢)</sup> ، وأبشروا بالرباح في البيع الذي بايعتم به<sup>(١٣)</sup> ، وذلك هو الفوز العظيم<sup>(١٤)</sup> .

— هذا ومن الجدير بالذكر أن عُمراً فاه بوصيته تكاد تماثل هذه في الأحكام والألفاظ أمام الجيش المتوجه الى العراق حين قال :

« بسم الله وبعوته<sup>(١)</sup> ، انطلقوا في رعاية الله فانه لا نصر الا منه ومن التمسك بالحق والصبر<sup>(٢)</sup> ، قاتلوا في سبيل الله أعداء الله<sup>(٣)</sup> ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين<sup>(٤)</sup> . لا تجبنوا<sup>(٥)</sup> ، ولا تمثلوا<sup>(٦)</sup> ، واذا لقيتم النصر فلا تتعدوا الحدود<sup>(٧)</sup> ولا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا صبيًا<sup>(٨)</sup> .

★ ★ ★

□ حواشي الوصية الثانية :

١ — يبدأ عمر وصيته لقائده الأمير على جيش الفتح بأن تكون عمليات الجهاد « بسم الله وعلى عون الله » لأن هذه النية بالذات هي التي تميز « الجهاد الاسلامي » عن الحروب الأخرى ، لأن الحروب العادية قد تستهدف العدوان أو التوسع أو الانتقام أو كسب الشهرة ، في الوقت الذي لا يُسمى فيه الجهاد « جهاداً » الا اذا كان في سبيل الله وباسمه .

٢ — فعندما يكون الجهاد في سبيل الله ونصرة كلمته ، يكون النصر محتملاً ، ولكن بشرط لزوم الحق والصبر . وأهمية الصبر هنا تنبع من أن القتال كريهة ، والكريهة تحتاج الى صبر وجلد حتى يتم النصر ( ليس من قبيل المصادفة أن تكون كلمات الجلد والجلاد والتجلد والمُجالدة من اشتقاق واحد في اللغة العربية ) .

٣ — ولما كان القتال في سبيل الله فيجب أن يكون ضد من كفر بالله حصراً ، ولهذا لا يجوز قتال المسلم للمسلم الاستثناء ، كحالة قمع العصيان وتأديب قاطعي الطريق ، والقضاء على أعمال الردّة والفتنة .

٤ - ويوصي عمر قادة جنده بعدم الاعتداء ، لأن الله تعالى لا يحب المعتدين ( هناك عدة آيات في القرآن الكريم تمنع العدوان وتأمّر بدفعه وتنص على معاقبة المعتدين ) • وإذا طبقنا هذه القاعدة على الحروب المعاصرة نستنتج منها ما يلي :

إنّ القرآن يأمر بالدفاع عن النفس : « وقاتلوا الذين يقاتلونكم » ، ولكنه يربط ذلك بمنع الاعتداء : « ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين » ، ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الاسلام يحث على القيام بالحرب الدفاعية وبالحرب الوقائية ( وهي الحرب التي نهجم فيها العدو في عقر داره لكي نُفشل هجومه قبل القيام به ) ولكنه لا يجيز الحرب الهجومية إلا إذا كان في ذلك مصلحة للدعوة الاسلامية ككل •

وأما بالنسبة للحروب العدوانية LES GUERRES AGRESSIVES وهي التي يكون هدفها الوحيد هو التقتيل والتخريب ، أو التوسع وتحقيق المجد الشخصي ، أو السلب والنهب ، فقد منعها الاسلام بنصوص صحيحة في القرآن والسنة النبوية ، قبل أن تمنعها أحكام القانون الدولي المعاصر عبر القرار الصادر عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بخصوص تعريف العدوان في عام ١٩٧٤ •

٥ - ويوصي عمر بعد ذلك باظهار الشجاعة عند لقاء العدو : « ولا تجبنوا عند اللقاء » لأن الشجاعة هي الطريق الى النصر ، وهي أمر معروف لدى العرب منذ الجاهلية ، وبعد الاسلام •

٦ - والمثلة - أي التمثيل بالجرحى والقتلى - أمر يأباه الاسلام والأخلاق العربية ، ولذا نجد أن الرسول ﷺ قد نهى عنه بقوله : « إياكم والمثلة ولو بكلب عقور » وهذا ما يؤكد عليه عمر في وصيته ، خيفة من أن تدفع شهوة الانتقام بعض المسلمين للتمثيل بالجرحى والموتى من أفراد العدو •

وهكذا يمكن القول ، بل التأكيد ، إن الاسلام منع التمثيل بالقتلى والجرحى (MUTILATION) وعدّه جريمة ، قبل أن تمنعه اتفاقيات جنيف ولاهاي باثني عشر قرناً على الأقل •



٧ - ويوصي عمر المسلمين «بألا يسرفوا عند الظهور»، ومعنى هذا ألا يتعدوا حدود التواضع بعد تحقيق النصر ، لأن هذا النصر من عند الله من جهة ، ولأنه ليس من المصلحة إيفال صدور جند العدو بالتكبر والتعالي والزهو عليهم عند النصر ، من جهة ثانية .

٨ - إن الحرب بين دولتين ليست الغاية منها أن تبيد إحداها الأخرى إبادة كاملة ، وإنما الغاية منها قهرها عسكرياً فحسب ، لذا فإن مبادئ وقواعد القانون الدولي الانساني المعاصر تميز بين ( المحاربين LES BELLIGÉRANTS وهم جند العدو وقواته العسكرية وشبه العسكرية و ( غير المحاربين ) . . وهم أفراد العدو غير المحاربين من كهول ونساء وأطفال .

وقد ميزت شريعة الحرب الاسلامية بين المحاربين وغير المحاربين ، ودعت الى التمسك بالروح الانسانية ، حتى تجاه العدو .

ومن أقوال الرسول ﷺ في ذلك : « أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحمة » وهذا القول يلخص أفضل تلخيص بنية ( القانون الدولي الانساني ) الذي يقوم على التوفيق بين الضرورات الحربية ( الملحمة ) والروح الانسانية ( الرحمة ) . وبما أن عنصر غير المحاربين يتمثل في المدنيين المسالمين ، ولا سيما الشيوخ والنساء والأطفال ، فقد نهى سيدنا عمر عن قتل هؤلاء صراحة بالقول : « ولا تقتلوا هراً ولا امرأة ولا وليداً » .

٩ - وإذا كان قتل الشيوخ والنساء والأطفال ممنوعاً صراحة في هذه الوصية ، فإن المقصود في ذلك هو «القتل المتعمد» بعد انتهاء المعركة ، وأما قتل هؤلاء عن غير قصد أثناء العمليات الحربية فهو أمر لا يمكن الحيلولة دونه ، حيث إن القذائف التي يرميها المسلمون على جيش العدو ومعسكراته وأهدافه العسكرية لا يمكن التحكم فيها بشكل تصيب به المحاربين دون غيرهم ، ولهذا اكتفى عمر بالقول : « واتقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات » أي عند لقاء العدو واشتداد حدة القتال .

١٠ - والتوقي من قتل الشيوخ والنساء والأطفال يجب أن يتوخاه المسلمون ليس فقط « إذا التقى الزحفان » ، ولكن إذا قام المسلمون بتنفيذ إغارات على

معسكرات العدو وتجمعاته أو كما يقول عمر « وفي شن الغارات » ، ويبقى « التوقي » هنا أخف من « النهي والمنع » الذي تحدثنا عنه في الفقرة (٨) .

١١ - يوصي عمر جنده بعد ذلك « بألا يغفلوا عند الغنائم » ، ومعنى ذلك عدم ارتكاب جريمة « الغلول » ، والغلول هو الاحتفاظ بجانب من الغنيمة وعدم تقديمه الى القسمة الشرعية والتي تكون عادة بمعدل الخمس لبيت المال وأربعة الأخماس الباقية لجملة المحاربين الذين شاركوا في المعركة .

هذا ومن الجدير بالذكر ، أن قانون الحرب المعاصر لم يعد يجيز أخذ الغنائم الشخصية ، وبقي من الجائز أخذ الغنائم من الجيش المحارب باسم دولته ، إذا كانت هذه الغنائم ذات طابع عسكري ( عتاد حربي ، خرائط ، خيول ... ) ، أو يمكن أن تؤثر في المجهود الحربي .

١٢ - ويوصي عمر جنده بعد ذلك « بأن ينزهوا الجهاد عن غرض الدنيا » وذلك لمنع التجاوزات التي يمكن أن تحدث عندما يكون الهدف من الجهاد غرضاً دنيوياً زائلاً . وهكذا إذا كان قانون الحرب الاسلامي يبيح الغنائم فإنه لا يحلل القيام بحرب في سبيل الحصول على هذه الغنائم فحسب ، لأن جميع الحروب التي لا يكون الهدف منها رفعة الدين والدفاع عن المقدسات تعد ذات أغراض دنيوية زائلة ، ولهذا لا تكتسب طابع الجهاد ولا تأخذ حكمه .

١٣ - وإذا كان المسلمون يخسرون « فوائد مادية » معينة عندما ينزّهون الجهاد عن الأغراض الدنيوية الزائلة ، فإنهم يربحون بالمقابل فائدة دينية كبيرة ، هي الربح الحقيقي ، وفي هذا يقول عمر : « وابشروا بالربح في البيع الذي بايعتم به » .

١٤ - وأخيراً ينبه عمر رضي الله عنه الى القيام بفريضة الجهاد المكرس لخدمة الله تعالى ودعوته ، والمنزه عن أي هدف من الأهداف الدنيوية فيه الفوز العظيم للانسان ، لأن الآيات القرآنية والسنة النبوية قد أجمعت على فضل الجهاد في سبيل الله ، والثواب الذي يحصل عليه الانسان عند أداء هذه الفريضة على وجهها الشرعي .

### ● الوصية الثالثة :

وهي وصية كان عمر بن الخطاب يحرص على قراءتها على مسامع قادة الجند عند تسليمهم الأعلام ، وهي تنص خصوصاً على التمسك بالتقوى وعلى أهمية هذه التقوى في ربح المعركة ، ويقول فيها : « أما بعد ، فاني أمرك<sup>(١)</sup> ومن معك بتقوى الله على كل حال فان تقوى الله أفضل العدة على العدو<sup>(٢)</sup> ، وأقوى المكيده على الحرب<sup>(٣)</sup> . وأمرك ومن معك من الأجناد بأن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم<sup>(٤)</sup> ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة<sup>(٥)</sup> لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم<sup>(٦)</sup> ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة<sup>(٧)</sup> ، وألا ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا<sup>(٨)</sup> . واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم<sup>(٩)</sup> ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله<sup>(١٠)</sup> ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا فقلن يُسلط علينا ، فرُب قوم سلط عليهم شرٌّ منهم كما سلط على بني اسرائيل لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً<sup>(١١)</sup> ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم<sup>(١٢)</sup> ، اسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » .

### □ حواشي الوصية الثالثة :

١ - يخاطب عمر قائد الجيش بلهجة « الأمر » ، وليس بصيغة النصيحة أو الوصية فحسب ، فيقول : « اني أمرك ومن معك بتقوى الله » . وجاء الأمر بتقوى الله لأن تقوى الله عامة شاملة يمكن أن تتفرع عنها جميع قواعد قانون الحرب وآداب القتال في الاسلام ، وهكذا تشمل التقوى فيما تشمل : العدالة ، منع الظلم ، منع الفساد والاعتداء على الأعراض ، معاملة العدو بروح انسانية ... الخ .

٢ - لمس عمر كبر الحقيقة عندما رأى في تقوى الله أسس الأسس التي يجب أن يتمسك بها المسلمون في حربهم ، لأنها « أفضل العدة على العدو » وهي أساس التماسك والروح المعنوية في الجيش الاسلامي .

٣ - ويرفع عمر « التقوى » من حيث أهميتها في القيادة نحو النصر ، الى منزلة المكائد الحربية التي يقوم بها كل جيش في سبيل الايقاع بالعدو .

٤ - بل ان عمر يأمر قائد الحملة والأجناد الذين معه بأن يكونوا أشد احتراساً من المعاصي من احتراسهم عند لقاء العدو ، لأن قلة الاحتراس عند لقاء العدو يمكن استداركها لاحقاً ، وأما المعاصي فهي وباء يصعب اقتلاعه اذا استشرى في قلب الجند .

٥ - ويتابع عمر وصيته فيبين لقائد الحملة وأفرادها أن ارتكاب العدو للمعاصي هو السلاح الأساسي الذي يمكن جند المسلمين من الانتصار عليه ، وأنه لولا هذا الأمر لكانت الغلبة له . . . .

٦ - لأن المسلمين لم يكونوا مساوين للعدو في القوة سواءً نظرنا الى الأمر من زاوية « العدد » أم من زاوية العتاد « العدة » .

٧ - وعلى هذا فان النصر لن يكون حليفاً لجيش المسلمين اذا تساوى مع جيوش الكفار في معصية الله .

٨ - واذا كانت القوة الاسلامية ليست كافية للوقوف في وجه القوة المعادية ، فان تمسك المسلمين بالفضيلة هو السلاح الذي سيمكنهم من النصر عليهم .

٩ - يجب ألا يخامر المسلمين المقاتلين أي شك في وجود « رقابة عليا » عليهم وعلى تصرفاتهم ، فهناك « حفظة من الله يعلمون كل ما يفعلونه ويقومون به » ، ولهذا يجب أن يخجل هؤلاء المقاتلون من القيام بأي عمل لا يأتلف مع التقوى الاسلامية والأخلاق الاسلامية .

١٠ - ويستخدم عمر هنا سلاح المنطق فيقول : لا يُعقل في جند يحارب في سبيل الله أن يرتكب معصية تغضب الله لأن في هذا قضاء كاملاً على الثواب الذي يحلم به .

١١ - ولا يعفى المسلمون من التقيد بمبادئ الفضيلة والتقوى في حالة منازلهم لعدو ظالم يرتكب المعاصي ، لأن الله سبحانه وتعالى قد يبلي الظالم بمن هو أشد ظلماً منه ، وذلك كما فعل ببني إسرائيل لما ارتكبوا المعاصي فسلط عليهم من هو أظلم منهم وهو نبوخذ نصر الذي فتك بهم ( من المعروف أن الكلدانيين كانوا يعبدون النار ولذلك يشير عمر اليهم باسم المجوس ) •

١٢ - ويربط عمر رضي الله عنه أخيراً في وصيته هذه بين نوعي الجهاد : **الجهاد الأصغر** بمنازلة العدو والانتصار عليه و**الجهاد الأكبر** بالتغلب على نزوات النفس وشهواتها فيقول : « أسأل الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم » ، ولا يستثنى نفسه من هذا الدعاء حيث يتوجه الى الله تعالى بقوله : « أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » •

★ ★ ★